

نثر شوقي

بقلم الدكتور سري فيصل

اي لبوس بدا هذا الادب الانشائي .. ولم يبق للسجع الا مجال الخطابة يحتمي بها ويحفظ على نفسه بعض مكانته عند الخطباء الموقنين .. فلما اتخذت الخطابة سبيلها الى التبسيط الذي يقربها من العامة ، وغلبت فيها حرارة المشكلة السياسية او الاجتماعية على اللبوس الفني ، كما نلاحظ في الاعوام الاخيرة ، خسر السجع اخر معاقله التي التجا اليها واحتتمى بها ، فلم يبق هنالك من ينشئ فيه اثرا فنيا جديدا .

وحين نقول السجع لا نعني السجع وحده ، وانما نعني كل هذه الطاقة من المحسنات البديعية التي تواب السجع في كثير من الاحيان : الطباق والمقابلة ومراعاة النظير والجناس والتورية وهذا الحشد من الوان الابداع في معناه الذي نعرفه به في كتب البلاغة المجددة .. فقد ارتبطت هذه كلها بالسجع فكان لا يكون - غالبا - الا معها .. فعافتها اذواقنا او عافت اكثرها بصورها القديمة مع ما عافت من امر السجع سواء بسواء .

وفي هذا الانصراف عن المقيد الى المطلق ، وعن المسجوع الى المرسل، تمثل اكبر منعطف في طريق النثر الفني في حياتنا العربية العاصرة .. ومن المؤكد ان هذا الانعطاف كان من القوة ومن التأثير في نثرنا الحديث بحيث نملك ان نفترض مطمئنين ان اقوى نص ادبي معجب من انشاء ادبائنا التمييزين لو قدر له ان يصاغ سجعا لانصرف الناس عنه ولغتشوا عن غيره ، ولقالوا في انفسهم مسرين وفي السنتهم جاهرين : انه السجع .. كانما يركزون في هذه الجملة كل افعال عصور الانحطاط يلبسونها هذا النص ، ويحملونه كل ركازات اللفظ وفقر المعنى الذي نعرفه في انتاجنا الادبي خلال اكثر فترات الضعف والتردى .

ومن هذا ، فيما احسب ، كان اعظم الفبن الذي لحق نثر شوقي .. واذا كانت مواضع العصر ومقاييسه هي التي القت على نثر شوقي ، اعني على النثر المسجوع ، هذه الظلال الكثيفة التي تحول بيننا وبين ان نستجيب له ، وبيننا وبين ان نتفاعل معه - اذا كان هنالك هذا السبب الخارجي الذي لا سلطان لشوقي عليه . فثمة سبب اخر كان شوقي نفسه هو مرده وهو مصدره .. هو فيه المبدأ وهو فيه النهاية ، واعني به شعر شوقي .. فقد طفى هذا الشعر حتى ما يكاد يذكر معه نثر ، وعنى الناس بالقصائد ولكنهم ما رددوا المقالات ، ونهلوا من الشوقيات ولكن « اسواق الذهب » كان - في شيء من التجاوز - كالاخ المنفى بين اجزاء ديوان شوقي ، عليه شكل اخوته وله مثل طابعهم الخارجي ولكنه لا ينزل في قلوب الناس وافئدتهم ولا يكون له في تقديرهم مثل منزلة اخيه ولا قريبا منها .

لقد غطى شوقي الشاعر على شوقي الناثر ، كما كسف عصر شوقي المطلق المرسل شمس السجع التي كانت متوهجة ذات حين طويل . على هدى من هذه الحقائق الاولى نستطيع ان نتحدث عن نثر شوقي ، وان نتساءل ماذا كان من امر هذا النثر وما سبيله فيه ؟ ما هي مسالكه التي اتخذها والوانه التي تسربل بها ؟ .. اهنالك وراء هذا النثر مذهب معين يتجه اليه شوقي ويبشر به ام كان الامر لا يخضع

اكان شوقي الشاعر الذي ملا شعره مسمع الدنيا ، وخفقت له قلوب الناس ، ورد الى الشعر العربي رونقة وبهاء ، وجلأ عنه - بعد البارودي وصبري - ظلمة عصور الانحطاط اكان شوقي هذا الذي فعل الاعاجيب في الحياة الفنية الشعرية ناثرا من الناثرين الذي يقف عندهم تاريخ الادب ، مشيرا الى اثرهم في سواهم ، دالا على مكانتهم فيمن حولهم ، مبينا عما كان من تجديدهم في الاسلوب العربي او تثقيفهم له ، او دفعه في بعض مساره الجديدة ؟!

اغلب الظن اننا لن نستطيع ان نكشف شوقي الناثر في شيء من اليسر .. لانه لم تكن له هذه القدرة على النثر الفني المتمكن من الصنعة حتى لتكاد تكون فيه عفوا .. ولا لان نثره لم تكن فيه هذه القدرة على الامتاع .. لا لشيء من هذا او ذاك ، وانما يتجاوز الامر شوقيا نفسه الى العصر الذي نعيش فيه ، والى المواضع التي نظمت اليها في العمل الفني ، والاسس التي نرتكز عليها في التقدير والتقييم .. فنحن نحيا في عصر هو اقرب الى الاطلاق منه الى التحديد ، والى العفوية منه الى التصنع ، والى الانسجام مع المعنى باكثر من الانسجام مع اللفظ ، والى الارسال منه الى القيد .. ونحن اليوم نحب النثر رهوا ، رخاءا ، لطقا ، كهذه الاشعة الخفيفة التي تجري مع النيل ، لا تسمع لها صلصلة ولا جلجلة ، ولا تحس لها ضجيجا ولا عجيجا ، وانما هي وسوسة ناعمة ، كانما هي همس الموج الى الجداف ، وتحية الجداف الى الموج ، ثم لا يكون بعد ذلك الا هذا التقدم المنطلق على صفحة الماء .

كذلك نحن نحب النثر اليوم ، وانما تولد عندنا هذا الاعجاب بهذا اللون من النثر المطلق ، وتكون فينا الميل اليه ، واستقر عندنا الاخذ به بعد ذلك والتزامه والانصياع اليه والرضا به - اثرا لسلسلة طويلة متشابكة من العوامل والاسباب .. بعضها يعود الى تراثنا العربي النثري في القرون الاولى قبل ان تطفى الصناعة ، وبعضها يعود الى طبيعة العصر وروحه العامة ، وبعضها يعود الى غلبة الفكرة وتقهقر اللفظة التي لا ترتبط بالفكرة ارتباطا وثيقا ، وبعضها يعود الى عوامل اخرى اصطلحت جميعا على ان تكون عندنا ذوقا جديدا ، ومقاييس جديدة ، واساليب يخضع لهذا الذوق وتمضي مع هذه المقاييس .

وابرز ما في ذلك اننا اردنا ظهورنا للسجع .. بل اوشكت ان اقول اننا كرهنا هذا السجع في كل ما يكون من صورته والوانه .. وسواء اكان السجع طريا نديا ام كان جافا قاسيا فنحن لا نؤخذ به ولا نظرب له الا ان يكون ذلك عارضا او كالعارض .. وعلى ذلك لا تكاد تتعاقب سجعتان في اسلوب كاتب من كتابنا ، ابرز كتابنا اذا شئت ، حتى نتوقف ونثور في نفوسنا النفرة من السجعة قبل ان يثور الاحساس بجعلها .. انما حين تمر بنا السجعة في صفحة من الصفحات ينبعث عندنا من الاحساس بانكار السجع كله اكثر مما ينبعث من الاطمئنان اليها .

ولقد مضى السجع في طريقه الى ان ننكره ونفرق منه في مرحلة الصحافة اليومية اولا ، ثم في مرحلة الادب الانشائي كله بعد ذلك في

لغاية ولا يمضي في منهب ؟ .. اهناك مراحل مر بها هذا النثر وماذا كانت دوافع شوقي اليه وعناصره في تكوينه واسلوبه في بنائه وموضوعاته التي صبها فيه .

وليس في وسعنا ان نعرض كل آثار شوقي الشعرية ، فبعض هذه الآثار يعود الى مطلع حياته ... وتلك خطى قد يعني بها مؤرخوا حياة الاديب وراصدو مسالكه ، ولكننا نريد اليوم ان نكتفي بالاشارة اليها دون الوقوف عندها ، ونعني بها هذه الآثار التي كتبها او ترجمها في صدر حياته : لإدياس - عنراء الهند - دل وتيمان - وبعض هذه الآثار هي التي تتوج اتجاهه الشعري وتعبّر عنه في اكمل صورته وتلك هي التي سنتوقف عندها ونعني بها «اميرة الاندلس» واسواق الذهب .. غير ان اميرة الاندلس عمل مسرحي خلص فيه شوقي من نثره المسجوع الى النثر المطلق فليس لها الا هذه الدلالة الضخمة على تطور نثر شوقي ولذلك لن نقف عندها الا من هذا النحو .

وقد كان لا بد لهذا البحث، كي يأخذ ابعاد آفاقه ، ويسير في اصدق اتجاهاته ، ان يظفر بشيء من رسائل شوقي فيما كتب الى خالص اصدقائه في الشؤون العامة او في شؤونه الخاصة ولكننا لا نزال في دراسة الادب من هذه الغاية على بعد .. لاننا لم نتعود ان نجتمع كل آثار اديبنا ، ولم نتمكن بعد من النظر اليهم - من خلال آثارهم الخاصة - في غير الصورة التي ارادوا ان يظهروا بها للناس في آثارهم العامة التي نشرها .

ما الذي نجده في اسواق الذهب ، ابرز آثار شوقي الشعرية ؟

حين قدم شوقي لكتابه هذا اشار الى كتابين آخرين : احدهما اطواق الذهب للزمخشري والآخر اطباق الذهب للاصفهاني فقال : « فهذه فصول من النثر ما زعمت انها غرر زياد ، او فقر الفصيح من ايام ... ولا توهمت حين انشأتها اني صنعت اطواق الذهب للزمخشري ، او طبعت اطباق الذهب للاصفهاني ، وان سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميهما ووسمته بما يقرب في الحسن رسميهما .. »

هذه الجملة التي جاءت في مقدمة اسواق الذهب دفعت بعض الذين كتبوا عن شوقي ، الى ان يقولوا انه جرى في كتابه على نمط اطواق الذهب واطباق الذهب ... ودفعت بعضهم الى القول بان عمله اقرب الى المقامات .. وقد يكون ذلك صحيحا اذا نحن تناولنا الامور تناولا عاما ووقفنا لا نتجاوز الشكل الى ما وراءه ... ان الأطباق والاطواق والمقامات قائمة في مظهرها الخارجي على السجع وكذلك اسواق شوقي ... غير ان هذا وحده لا يتيح لنا ان نفرق في المقارنة حتى نصل الى حد المطابقة بين هذه الاعمال الثلاثة .

وصحيح ان شوقي اشار الى الاصفهاني والزمخشري ، ولكننا يجب ان لا ننسى انه اشار كذلك الى زياد بن ابية وقس بن ساعدة اليايدي ، وانه سرد هذه الاسماء كلها لا على اساس فني ، بمعنى انه لم يقصد الى ان يقيم هذه المقارنة او المطابقتين صنيعه وبين صنيع هؤلاء الذين تحدث عنهم ، وانما قصد الى شيء من الزينة الفنية حين سمى غرر زياد وفقر الفصيح من ايام .. انه في الواقع كان في نطاق تعداد هو الى ذكر طائفة من الاسماء اللامعة في النثر العربي ، انه في الواقع كان في نطاق تعداد هو الى ذكر طائفة من الاسماء اللامعة في النثر العربي ، بعضها اسلامي وبعضها من القرون المتأخرة - اقرب منه الى شيء اخر .

واذن فليس هناك هذا النمط المشترك - ان شئنا الدقة - بين الاسواق وبين الاطواق والاطباق والمقامات .. وليس هناك هذه الرغبة في

تقليد أثر بعينه عند شوقي .. ان لكل من هذه بناءه واساسه ووجهته التي يخالف بها عن وجهة الاخر وبنائه واساسه .

بواعث السجع

في ذهن كل الذين يقرأون نثر شوقي تحوكة هذه الاسئلة المختلفة : لم لجأ شوقي الى هذا النثر وقد عرف تميزه بالنثر وتقدمه فيه سائر طبقات المحدين ؟ وما الذي كان وراء هذا الطريق الذي شقه من بواعث ؟ الم يكن في المجال الشعري ما يسد كل ظمأه الفني ؟ .. اكان يحس ان ثمة دفقة من نفسه في حجة الى ان تبدو للناس في غير قالب الشعري الذي ارتضاه سبيلا ومضى فيه وصفله اروع صقل في تاريخنا الابي الحديث ؟ الم يكن يجزيه شوقيا ان يقال عنه انه امير الشعراء ، وان يقال بحق عن عصره في التاريخ الادبي انه عصر شوقي ؟ اكان هناك دوافع خاصة تدفعه الى هذه المزوجة بين الشعر وبين النثر ؟

وقفت طويلا عند هذه الاسئلة التي كانت تجلجل في صدري وانما اعالج نثر شوقي ولكني لم اجد الجواب الذي اطمئن اليه وارتيضه ... واحسب انه ما لم يتح للذين عاصروا شوقيا وخالطوه ان يتحدثوا عن كل ما عرفوا من سيرته او خبروا من سيرته او شهدوا من تشابك العلائق في حياته ان يقولوا هذا الذي عرفوا او خبروا او شهدوا ، وان يكشفوا عن كل وجوه هذه السيرة والسيرة والعلائق - فان حديث المتحدثين اليوم وغدا لن ينكشف عن شيء وانما سيظل يدور حيسس الحس والتظني والافتراض .

ومن هذا الافتراض ان نرى في صنيعه امتدادا لما استقر ، تقريبا ، في تراثنا الادبي القديم من الجمع بين الشعر والنثر عند كثيرين .. حتى الذين عرفناهم شعراء كان لهم نثر لم يصلنا منه شيء . فابو الفرج في الاغاني يحدثنا ان بشارا كان صاحب منثور ومزدوج ورسائل . ويبدو ان جهرة من اديبنا على مدى تاريخنا الادبي الطويل حرصوا على ان يجمعوا بين هذين القالبين ... وكانما استنقر عند شوقي ان من تمام التميز في الادب العربي ان يماشي موكب الشعر عنده موكب النثر ، وان تحفه من حوله ، من يمينه وشماله آلهة الشعر وربات النثر .. وذلك كله - فيما احسب - استمرار للتقاليد الادبية العربية .. وما من شاعر كشوقي

دار الآداب تقدم :

في ازمة الثقافة المصرية

بقلم الناقد المجدد

رجاء النقاش

دراسات عميقة شاملة عن قضايا الثقافة المصرية الحديثة ومشاكلها

صدر حديثا

استطاع ان يمد خيوط هذه التقاليد من نحو ، وان يوجهها وجهة جديدة من نحو اخر ، وان يقيم هذا التوازن بين القديم والجديد من نحو ثالث . . بل لعل حياته ، سيرة وانتاجا ، ليست الا هذا الجمع المتوازن .

وقد لا يكون هذا التقليد الادبي هو الذي دفع شوقي في هذا السبيل . . . قد يكون في واقع حياته ، الداخلية التي لا تعرف عنها الا القليل هذا الدافع . . اتراهم عبروا شوقيا ذات مرة بتقص زاده اللغوي فاراد هذه المقالات تمثيلا لفتاه في هذا النحو ؟ اتراهم عبروه بالقصور في النشر فرد عليهم مقالتهم ؟ . اكان هنالك من حيب الى شوقي السجع فمضى فيه؟ . . من يدري ؟ ولعله على كل حال شهد تطور النشر نحو الانطلاق ، ولحظ ان هذا التطور مقرون بالكره للسجع والزراية به والعبث عليه فساراد ان يعيد لهذا اللون الادبي الفه ، وان يرد عليه حرمة ، وان يجعل منه هذه القصائد المنشورة ، وان يخرج به عن نطاقه التقليدي وعن موضوعاته التقليدية في المقامات او ما في حكمها ، فوسع ساحته ، ونوع موضوعاته وارد ان يتسع لكل هواتف النفس ، واصوات المجتمع ، ومشاكل العصر .

ويدو ان هذا هو الذي كان . . فقد كتب شوقي نفسه في « اسواق الذهب » يكشف عن صنيعه ، ويبرزه ، ويعرض لهذا السجع الذي صب فيه بعض انتاجه الادبي ، ويبين عن مكانته وقيمه ويقول عنه :

« السجع شعر العربية الثاني ، وقواف مرنة ربيعة خصت بها الفصحى ، يستريح اليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله . . . وقد ظلم العربية رجال قبحوا السجع وعدوه عيبا فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقيح الرذول منه يوضع عنوانا لكتاب ، او دلالة على باب ، اوحشوا في رسائل السياسة او ثرثرة في المقالات العلمية . . . »

وتلمح في تبرير شوقي للسجع شيئين اثنين اساسيين ربما كان فيهما بعض التعبير عن الدوافع التي حدثت به الى اصطناعه والاخذ به وهما الحفاظ الديني والحفاظ اللغوي . . انه يرى ان القرآن الكريم لجا الى هذه الفواصل ، وما كان احلاها ، وفي الحديث الشريف من هذا اللون مثل ما في سجع الحمام من حلالة ، وفي كلام السلف الصالح منه المأثور الخالد ، فما ينفع الناشئة ان تتخلى عنه او تتنكر له : « فيا نشء العربية لغتكم السرية مثرية ولن يضرها عائب ينكر حلالة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام في الحديث الشريف ولا كل مآثور خالد من كلام السلف الصالح » .

الموضوعات

لم تكن الموعظة والزهد الفرض الاساسي عند شوقي ، ولم تكن الحكمة والمثل كذلك من هدفه الاول وان اشار اليهما واشاد بهما في مقدمة الاسواق « الحمد لله الذي علم بالقلم ، والههم نوابغ الكلام ، وجعل الامثال والحكم ، احسن آداب الامم » على كثرة ما تقع له الحكمة . . وواضح ان شوقيا لم يقصد كذلك الى موضوع واحد ، او موضوعات - متقاربة يمثله او يعبر عنه عدد من الشخصيات على مثال ما انشأ بديع الزمان والحريري في القرن الرابع والخامس والمولحي واليازجي في العصر الحاضر مقاماتهم . . وانما نوع شوقي بين موضوعاته تنوعا كبيرا ، وكان في اسواق الذهب مثله في الشوقيات يتراوح بين الموضوعات الاجتماعية في الواهنا المختلفة . . ويطالع الانسان في كتابه صورا من المدعي العمومي الى حديث عن الزهرة ، ووصف للشمس وحديث عن الطلاق ، ووقفه طويلة عند الحياة ووقفه قصيرة عند الموت . . ان آفاق شوقي في الاسواق من التنوع ومن الامتداد في هذه الوجة او تلك بحيث تدفعنا الى القول :

لم يكن يقصد الى الانشاء من حيث هو انشاء بقدر ما كان يقصد الى التعبير عما حوله وعما في نفسه .

على ان هذه الموضوعات لم ترتب وفاق شكل معين ، فلم تفرد الموضوعات ذات الصبغة المعينة في قسم خاص وانما جاءت ، شأنها في ذلك شأن الشوقيات ، متداخلة متعاقبة .

وليست هذه الموضوعات جديدة كلها ، وليست كذلك قديمة كلها . . بعضها من هذه الموضوعات الانسانية المشتركة التي لا يعني فيها القول ، وبعضها من هذه الموضوعات الطارئة التي توحى بها الساعة وان كان شوقي على ما نعرف من امره في الشعر اقدر الناس على ان يستلخص من الحادثة الطارئة المعنى الثابت ، وان يعتمر من البارقة الخاطفة الضوء المديد .

وقد وفق شوقي في تجديد موضوعاته الشعرية توفيقا بارعا . . تجاوز النطاق التقليدي او الذي آل ان يكون تقليديا في اختيار الموضوع ، فاستمد موضوعاته من كل ما حوله : من الدين ، ومن المجتمع ، ومن السياسة ، ومن صراع الفكر ، ومن هذه القضايا التي كانت تثيرها روح العصر . . فتحدثت عن الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وعن العدل والظلم وشاهد الزور ، وشهادة الدراسة وشهادة الحياة ، وعن الاهرام والبحر المتوسط والجندي المجهول ، وعن الظبي والاسد والشمس ، واثار الى الوطن والوطنية ، والاشتراكية والشيوعية والحريسة والاستقلال .

ولكن يجب ان نستدرك . . فشوقي حين طرق هذه الاشياء كلها انما طرفها ليصنع منها عملا فنيا لا ليعالجها او يشرحها . . ان بناء الاثر الفني هو الذي كان يستبد بكل قواه ومن هنا مصدر اكبر الفرق بينه وبين الذين عاصروه من النثرين المرسلين .

العناصر

واذا كانت موضوعات شوقي في هذا التنوع فما هي العناصر التي كانت تدخل في تركيب مقالات شوقي وفي اقامة بنائها ؟

العنصر التاريخي

نستطيع ان نلمح بوضوح ان ثقافة شوقي التاريخية تؤلف عنصرا اساسيا في تكوين موضوعاته . . بل ان هذه الثقافة التاريخية هي التي كانت تبسج لبعض مقالاته ان يطول . . وحيث يكون التاريخ نبعة يرتوي منها ويتزود ما وسعه الارتواء والتزود . .

وهذا الاحتفاء بالعنصر التاريخي في نثر شوقي ليس بدعا جديدا . . فنحن اذا كنا نراه او نلمحه في نثر شوقي فقد لمحناه كذلك من قبل في شعره . . انه ركيزة اساسية من ركائز العمل الفني عند شوقي الشاعر وشوقي النائر على السواء .

العنصر اللغوي

افراغ الاثر الفني في قالب السجع يقتضي بطبيعته مادة لغوية ثرة . . ونحن لا نستطيع ان نتصور نثرا مسجوعا لا يكون لغزارة اللفظة ووفرة مفرداتها نصيب كبير فيه .

واذا كان هذا صحيحا فنحن لا نحتاج ان نقف وقفة طويلة عند هذا العنصر الذي يدخل في عمل شوقي النثري . . غير اننا لا نملك السكوت عن ملاحظة ان شوقي استطاع ان يجاري الفحول في استخدام المادة اللغوية واستثمارها . . ان مقالاته في اسواق الذهب كشفت عن مقدرته اللغوية البارعة . . واذا كان هذا شيئا طبيعيا من امثال الحريري وبديع الزمان والزمخشري واليازجي من الذين نشأوا في رحاب المعاجم العربية

بيتهناك...

((الى كل ضائع .. بغير بيت ..))

هناك .. فوق ربوة .. منسية ، مهجوره
في مسرح الاحلام .. في قريتنا .. الماسوره
بقية لمنزل .. قد بعثروا سطوره
قد هدموا جدرانها .. ، ومزقوا زهوره
فماتت النسمة .. في الحديقة ، الضميره
واختنقت أنفاسها ، الخيرة ، .. الغميره
واصبحت .. مهجورة ، حديقتي ، مغموره
لا بلبل يزورها شوقا ، .. ولا شحروره
والليل مد فوقها .. مع الاسى سيئوره

هناك حول منزلي .. ، في قريتي الصغيره
قلوبنا على ملاعب الصبا .. منشوره
هناك كل لفته .. مثيره .. مثيره
تخاطفت أعمارنا ، الملاعب المسحوره
في منزلي .. هناك ، كل قصتي مسطوره

لو مرة تحملني .. لحضنه .. عصفوره
تخط بي هناك ، فوق أرضه الطهوره
كنت أقبل الحصى .. اعانق النافوره
لكنني في غرفتي .. ضاقت بي المعموره
كأنني الغريق ، في الدوامه المسعوره
ومنزلي الحبيب .. يدعوني لان أزوره
انقذه .. من طغمة فاسده شرييره

مثلي ، حبيبي ، منزلي .. ، في غرفة مرييره
تجثم فوق صدره .. النوازل الكثيره
كم دمعة ، كم لوعة ! .. كم احمره مقهوره
تحت رمال منزلي .. مدفونه مطموره

بيتي .. مسارج الفداء لم تنزل منسييره
ورائتي ، خافقه .. شامخة .. منشوره
وذكرياتي .. هامة ، مرفوعة فخوره
انقل الخطي ، على جباه المعتدي الحقييره
بيتي .. وان فارقتني .. يا غنوتي الاثيره
فموعدني مع الزحوف الحسرة الكبييره
فضي عيوني . أنت . صورة .. والف صوره

هارون هاشم رشيد

غزة

وانصلوا بالثقافة اللغوية اتصالا مستمرا دائما - فانه من الامر الخارق
الذي يلفت النظر حقا ان استطاع شوقي - وبيئته هي بيئته النسي
تتمازج فيها العناصر الاعجمية وتتقلب فيها اللغات الاجنبية : التركية
والفرنسية - ان يستعلي على هذه البيئه من نحو وان يمسك بزمام
اللغة العربية وان يسخرها كيف يشاء فتلين له بين يديه وتطويعه في
نثره في انطلاق واستساعة وشيء من عفوية كثير ، وان يضرب في هذه
اللغة يطلب ما يقتضيه السجع فلا يفوته اللفظ وانما يساس له كما
يربده في نطاق الصنيع الفني الذي اخذ نفسه به .

انه ليس شيئا عاديا ان يمتلك شوقي كل هذه القدرة اللغوية التي
دل عليها نثره باكثر مما دل عليها شعره نتيجة لتتبعه الشخصي
ومطالعته الخاصة وحسه المرفه دون ان يكون واحدا من الذين نشأوا
في رحاب الازهر او درسوا على اساتذته او كانوا قريين من معاقل
الفصحى .

العنصر الواقعي :

ومع ذلك فان الجانب الاكبر في مقالات شوقي يرتد في اصله الذي
نجم عنه او في تفاصيله التي ينشعب فيها الى هذا العنصر الواقعي
من حياة الشاعر او مما يشاهد في مجتمعه مما يفرح به او يشكو منه ،
مما يكره او مما يتمناه .. ولو رحنا نستقصي هذا العنصر في مواضع
شوقي لطلل بنا الطريق ، ذلك انك تجده في اكثر المقالات .. وقد يكون
هو الذي يولد بعض معانيه او يكون الحديث عنه .. ففي قطعة عن
«الجندي المجهول» نستطيع ان نلمح بوضوح كيف انعكس بعض العنصر
الواقعي في حياة شوقي او مجتمعه على هذه القطعة فولد فيها بعض
معانيها .. ان شوقي يشهد كيف يسير الناس في الجنائز ، وينالون
وهم يشيعون الاموات ، من الاموات ، والاحياء على السواء ، ويلفون
في الاعراض والحرمان وهم يرون عاقبة الحيلة .. ان هذه الصورة
الاجتماعية المنفرة ولدت عند شوقي في حديثه عن الجندي المجهول هذه
الفكرة (..) .. الا هذا الجندي المجهول ، فقد خلت جنازته من الهامس
والهامز ، والفامض والفامز ، فقل لمن يعرفه الناس : طوبى لك ، ما انعم
بالك ، وما انقى كفئك وسر بالك - ص ٢٤) .

وشوقي كذلك يشهد في مجتمعه كيف يكون تجنى الشيع والاحزاب ،
وكيف يتسلح غير ذي مجد باذيال ذوى المجد ، وكيف يحاول الفاشلون
من الابناء ان يستقلوا سمعة آبائهم .. ذلك في مقالته ويولد عنده هذا
المعنى الذي صاغه في الجمل التالية : (.. ذهب رحمه الله لادن ولد
يرميها بجنادل ابيه ، ولا اخ يسحب علينا اكلان اخيه ، وكفانا تجنى
الشيعه ، وادلال الصنيعة وكل حرباء يتسلق الناس شجرا الى الشمس ،
يعبدها على مناكبهم من المهدي الى الرمس .) ص ٢٥ .

الاسلوب

حين نتحدث عن الآثار الفنية التي انشئت في قالب السجع يقلب
على اذهاننا معنيان اثنان : احدهما هذه الحسنات البديعية المختلفة التي
تواكب السجع من مثل الجناس والطباق والتورية ومراعاة النظر وما
الى ذلك .. والاخر هذا الفقر المنوي الذي نلمحه في كثير من الآثار
المسجوعة ، وهذا التقلب للجانب اللفظي الذي يخرج الاثر الفني عن
هدفه الاول الى شيء من الشرثرة او الخشو كما عبر عن ذلك شوقي
نفسه .

نثر شوقي

- تنمة صفحة ١٢ -

افتجد مثل هذا عند شوقي حين نقرأ اسواق الذهب ، وهل استطاع ان يتجنب العيوب التي رمى بها السجع او التي اضيفت عليه ؟ وما بلغ من امره في هذا السبيل ؟

من الحق ان نبيه قبل كل شيء الى ان شوقي استطاع ان ينجو مما سماه الثروة وارتفع بأثره الادبي عن مستوى الانار المسجوعة التي سيطرت في بعض فترات الانحطاط .. وبوجه خاص استطاع ان يسود المعنى ، وان لا يغمط الفكرة ، وان يجعل نقطة انطلاقه التعبير عما فسي نفسه لا مجرد التعبير .. ان كثيرين من الذين كتبوا سجعاً لم تكن تعيش في اذهانهم فكرة معينة ، وانما كانت تعيش في ذاكرتهم ثروة لغوية خصبة تتيح لهم هذا السجع وما يتصل به من محسنات .. فلما ارادوا لهذه الثروة اللغوية ان تبدو ، ولهذه القدرة ان تتضح للناس ، اخذوا ينشئون .. بمعنى ان الدافع الاول - اغلب الظن - كان يكمن في الرغبة في استعمال هذه الثروة والابانة عنها ، وكان يتمثل بعد ذلك في هذا الاثر الادبي او ذلك .. ان نقطة الانطلاق كانت في كثير من المرات اللغة نفسها .. ولكن شوقي لم يكن كذلك ، فلم تكن الرغبة في الادلال بقوته اللغوية - فيما يبدو حقاً - مصدر هذا العمل الفني ، وانما كان هنالك فكرة معينة تظيف بذهنه ، او تأمل يسيطر عليه ، او انفعال يخامر فؤاده ويفغره ، فاذا هو يعبر عنه هذا التعبير المسجوع ، تاماً كما كان يعبر عن هذه الاشياء بالشعر .

ولكي نؤكد هذه الحقيقة يكفي ان نذكر ما فعله الاصفهاني في اطباق الذهب .. ان مقاماته كانت عرضاً لغناه اللغوي .. ذلك لاننا نعدم عنده الفكرة فأفكاره هي افكار الزمخشري ، ونعدم عنده الانفعال فانفعله يأتي طارئاً ، يأتي متأخراً لا ينبع من ذاته وانما يأتيه من قراءة الزمخشري عن طريق العدوى ، ولا نكاد نجد عنده الا هذه التوسعة اللغوية - ان صحت التسمية - ما قاله الزمخشري .

ولعل شيئاً من هذا او هذا كله هو الذي فعله اليازجي في مقاماته « مجمع البحرين » فقد كانت عرضاً لبراعته اللغوية في اكثر المرات ، وفي مقامه كالمقامة اللبنانية مثلاً نجد انه استعرض الافعال التي تدل على معاني القطع والافعال التي تعدل على معاني الكسر والفروق الدقيقة بينها ثم نظمها ..

واذن فقد وفق شوقي في انتشال السجع من وهدهته التي ردى فيها حين بدأ انطلاقه فيه من الفكرة .. ولم تكن الفكرة او الحادثة او الشيء الذي يراه بعينه ليصنعه ، مجالاً لتصيد الالفاظ اللغوية التي يمكن ان تدور في فلك هذه الحادثة او هذا الموصوف ولكنها كانت لتعبر عنها ولتتلاءم مع التعبير الجاهز او التعبير المجتلب .

ولهذا فنحن نجد ان لمقالات شوقي عناوين : الاسد - الجمال - الذكرى - الاهرام - الطلاق .. ولكننا لا نجد لمقامات الزمخشري عنواناً وبالتالي لا نجد عنواناً كذلك لمقامات الاصفهاني .. وفي مقامات الحريري لا يقني العنوان دائماً .. وعناوين « مجمع البحرين » غريبة جداً لانها مصطنعة اصطناعاً واضحاً (المقامة المصرية - الرشيدية - الفرثية - اللبنانية - الحموية -) لا تدل على شيء مما وراءها ، ولذلك لما صنعوا فهرس هذه

المقامات كتبوا العنوان وكتبوا الى جانبه ما تتضمنه المقامة .. ان العنوان الصحيح يعبر عن الحادثة او الفكرة التي اراد الكاتب ان يتحدث عنها لا الحادثة المفتعلة التي اراد الكاتب ان يجمع حول نواتها الالفاظ اللغوية المختلفة .

والحق اننا في سلسلة الانار المسجوعة في الادب العربي - تستطيع ان نلمح هذه الانواع المختلفة : آثار تقوم على تغليب اللفظ كما عند اليازجي و آثار تقوم على تغليب الحادثة كما عند البديع والحريري - و آثار تقوم على تغليب الفكرة مع رعاية مقام اللفظ كما فعل شوقي في الاسواق بخاصة . ولم يوفق شوقي في ان ينجو بالسجع من الفقر في الفكرة والتفاهة في المعنى ، وانما وفق كذلك في ان ينجو من سيطرة المحاسن اللفظية التي توأبها .. ان الطباق والجناس بأنواعهما يشغلان حيزاً كبيراً في الانار الادبية المسجوعة ويقصد اليهما في بعضها قصداً ، ويتولد المعنى الصغير حينئذ منهما ، وقد يلتفتان الحديث عن مجراه .. وما اكثر ما كانت هذه الاشياء تجتلب اجتلاباً يتضح للقارئ دون ريب انه اجتلاب مفتعل . اما شوقي فالذي تيسر له من ذلك ينسب عن انه لم يكن مقصوداً اليه كل القصد ، وبصورة خاصة ما يسميه البديعيون مراعاة النظر .. واحسب ان الذي جاء عنده من الطباق والجناس انما كان اثرًا من آثار نشدان السجع نفسه .. فاللفظة المسجوعة تستدعي لفظاً اخرى قد لا تشاركها في الحرف الاخير فحسب ، ولكنها تشاركها في اكثر من حرف فيتولد هذا الجنس الناقص .. ولعلنا حين نقرأ مثلاً حديثه عن اليوم «ص ٧٢» وعن الفد «ص ٧٣» نجد ابرز القطع التي تتجمع فيها هذه العناصر البديعية .

وما نعفي شوقياً من قدر من التكلف في اصطناع هذا البديع اللفظي ، ولكننا ننفي عن سجع ان يكون قد فرّق في المحسنات فضلت به المحسنات عن معناه .. ان وجود هذه المحسنات التي توأب السجع امر لا مفر منه عند اصطناع هذا الاسلوب .. ولكن كثرتها وغلبتها هي التي تقسيم المخالفة بين اثر و اثر : تجمل من احدهما اثرًا مقبولاً او محبباً ، ومن الاخر اثرًا ممجوجاً او مرفوضاً .

ان شوقي اراد من السجع كما قال حلاوة الفواصل وهديل الحمام باكثر مما اراد الى القيد والتكلف والالتزام .

على ان شوقي لم يلتزم هذا السجع دائماً ، ولعله من الطريف ان نلاحظ انه في الاقسام الاخيرة من اسواق الذهب انحرف عن التزام السجع ، بل انه في القطعة التي كتبها للدفاع عن السجع تحرر من هذا القيد ، وبدا اوضح ميلاً الى الاسلوب المرسل .

ان هذا التحرر كان بداية طريق جديدة في نثر شوقي ، كان بداية الطريق الى النثر المطلق الذي بدا في اميرة الاندلس وكانما مضى نثر شوقي مع شعره في طلقين متوازنين .. ولا ندرى ان كانا كذلك متوافقين . الشعر المشدود الى مواضع القصر ، والشعر المتحلل من هذه المواضع .. والنثر المشدود الى السجع وانواع البديع في الاسواق ، والسجع المتخفف منها في اميرة الاندلس

ومهما يكن من تقديرنا لهذا النثر ، فلسنا نملك ان نقول الذي قاله المرحوم العلامة الامير شكيب ارسلان من ان نثر شوقي قتل شعره او فتك به ، ولكننا اقرب الى ان نقول ان الهة الشعر التي قامت عن ميامنه « على حد تعبير بشارة الخوري » قد اجتذبت اليها باكثر واقوى مما استطاعت ربان النثر التي قامت عن مياسره .

شكري فيصل